أنا والآخر.. وتخييب نحن

فاطمة ناصر

بعض الممارسات اللغوية تصبح عادة وسلوكا. و هذا الحال فيما يتعلق بألفاظ مثل: أنا و الآخر. شاع استخدامها دون النظر في مكوناتها الفكرية والثقافية العميقة. في مقال بمجلة التسامح (الآخر والأنا في الوعي العربي المعاصر) يقف بنا عبدالإله بلقزيز لنفهم ما نمر عليه على عجل. وكما نعلم فإنّ اللغة تتأثر بواقع مستخدمها وبحاضره وماضيه، لهذا نرى أنّها تواكب مختلف حالاته الحضاريّة من ركود أو من تقدم. ولو تخيّلنا وجود مرآة مهشمة ووقف عدة أشخاص أمامها، سنرى منهم من يرى نفسه قبيحاً في الأصل ولم تزده المرآة المهشمة إلا قبحاً، ومنهم من سيلقي اللوم على المرآة ويقول إنّها المسبب الوحيد لهذا القبح.

من أنا ومن هو الآخر؟

الأنا تعبر عن مركبات كثيرة، فهي عاكسة للمكونات الحضارية التي تنتمي لها: كالدين، واللغة، والجغرافيا وغيرها. بالإضافة إلى مكوّنات ذاتية يتمايز الأفراد فيها: كالظروف المعيشية التي لا تختلف فقط من بلد لآخر بل إنّ كل بيت وكل فرد في البيت له تجربته المتفردة مع ما يحيط به. وبهذا علينا أن نكون حذرين ويقظين لاستخدامات الأنا في سياقات جمعيّة، والغرض والمبتغى من استخدامها. وكما ذكرنا في المقدمة فإن (الأنا) العربية المعاصرة تختلف عن الأنا العربية القديمة، فحين تكون حضارتنا في علو وترقٍّ، نرى هذا ينعكس على خطاب الأنا ونظرة هذه الأنا للآخر، والعكس صحيح.

من المهم أيضا أن نثير تساؤلاً آخر ما الذي يجعل الأنا العربية مختلفة عن غيرها؟ وما الذي يجعلها ظاهرة ومُصرّحة وكاشفة عن نفسها بشكل مزعج أحياناً. ولماذا هي نشطة لهذه الدرجة في المحيط العربي، وأقل نشاطا في المحيط الغربي؟

الرحلات التي قرّبت لنا الآخر

يقول الكاتب إنّ الرحلات كانت أحد أهم الطرق التي شكلت وعينا بالآخر. ويقول إن على الرغم من أن الآخر (غير المسلم) سكن بيننا إلا أننا لم نأبه باكتشافه، لأن من سكنوا بيننا كانوا قد تماهوا في نسيجنا المجتمعي لدواعي العيش المشترك. وما إن خرجنا لرؤية الآخر في موطنه حتى رأيناه أكثر اختلافاً عنا، لظروف بيئته التي تشبهه والتي لم يفرضها عليه أحد. ويقول الكاتب إن رحالة القرن التاسع عشر تختلف نظرتهم للآخر عن الرحالة الذين سبقوهم. ويعزي الكاتب هذا الاختلاف إلى التراجع الحضاري للأمّة الإسلاميّة بشكل عام. ويذكر مثالا أنّ البيروني الذي عاش في القرن الرابع، وأبرز ما كتب هو كتاب (تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة في العقل أو مرذولة)، قد كان في تناوله ووصفه للآخر في مؤلفاته أقل شعوراً بالنقص من الأجيال التي أعقبته. وهذا قد يعود لحال الأمة الإسلامية في وقتها وازدهارها وكثرة علومها وفنونها. فنلحظ كذلك أن البيروني نفسه ومن عاصره، كانوا ذوي اهتمامات متعددة، فهو كان رحالة وفيلسوفًا وفلكيًا وجغرافيًا وتطول قائمة اهتماماته عن الذكر. بينما نلحظ أنه بعد التردي الحضاري لهذه الأمّة، بدأ منبع الشغف بالعلوم في الجفاف. بل إنّ مقارنة نظرة الرحالة في القرن التاسع عشر بنظرة البيروني بها تبين فرقًا كبيرًا. فنجد الأنا في القرن التاسع عشر أصبحت أكثر انبهارًا بإنجازات الآخر. وأن الأنا القديمة التي ترى الآخر بنظرة الند لم تعد موجودة.

ماذا حصل لخطاب الأنا بعد التراجع الحضاري؟

يقول الكاتب أنّ الأنا المعاصرة انقسمت إلى: أنا ذات خطاب أصالي، وأخرى ذات خطاب حداثي. الخطاب الأصالي يرى الأمة الإسلاميّة قد انحرفت عن تطبيق المبادئ الإسلامية الحقه وهذا سبب تراجعها. وأنّ الإسلام هو النظام الكامل المتكامل. وبالتالي فإن أي تراجع وتدنٍّ يعود إلى عدم التطبيق الصحيح لهذه المبادئ. وهذا الخطاب لازال بعد مضي كل هذه السنين، يرى في الآخر عدواً صليبياً مخالفاً. وهذا الخطاب كان رواده كبار المصلحين والدعاة الإسلاميين كالأفغاني وعلماء المدارس الكبرى من الأزهر وحتى الزيتونة. وهو الأعم والأكثر تأثيراً على المجتمع.

أما الأنا الحداثية فهي ذات خطاب استنهاضي معجب بالآخر ومعترف بتقدمه. فهو يركز على الحاضر واستغلال الوقت في العمل، عوضاً عن لوم حال الأمة وتذكير الآخر وأنفسنا بأفضالنا عليه.

ويتلاقى الخطابان في الهدف والمبتغى، رغم اختلافهما في التطبيق، فترى المانع المتكابر وترى المعجب المنبهر، ولكنهما يشتركان في رغبة العودة إلى المقدمة.

غياب الموضوعية في معرفة الأنا والآخر

آخذين بمبدأ هيجل الذي يقول إنّ الآخر هو الذي يحدده الأنا. ينبغي علينا معرفة ذاتنا جيداً، وبشكل موضوعي. وربما يأتي الإشكال من الكلمة الأخيرة. فالموضوعية والحيادية أمور لطالما تصادمت والشخصية الإسلامية. فكيف نطلب من (خير أمة) أن ترى نفسها بعيوب. بل إنّها تجيد غض البصر عن سوءات الماضي المزدهر حضارياً، وما كان به من تنكيل بالآخر المختلف حتى في الملة نفسها، أو ذلك الترف وتعارضه مع المبادئ الإسلامية التي يعزون لها سبب التقدم والازدهار. ويقول الكاتب إنّ ماضينا المزدهر ليس كل مافيه خير، وكذلك حاضر الآخر وماضيه.

قولي في المقال

لقد أشعل المقال في نفسي الكثير من الشغف والأسئلة، فوجدتني أبحث عما كتبه البيروني في القرن الرابع وأحلل لغته في أدب الرحلات، واجتهدت في البحث عمّا قاله رحالة القرن التاسع عشر فرأيتني أمام رفاعة الطهطاوي يصف فرنسا في (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) وهناك لاحظت تباين الخطاب، ورأيت التبريرات والأعذار لسوءات أمة ترى أنها ذات الخُلق الأمثل والأكمل. فوجدت الطهطاوي يتحدث عن (عفة النفس عند العرب والإفرنج) قائلا: إنها من طبائع العرب الشريفة، ويبرر تلاشي هذه الصفة بأنهم: «قاسوا مشاق الظلم ونكبات الدهر وأحوجهم الحال إلى التذلل والسؤال» ويقول بعدها: «ورغم ذلك بقي منهم من هو على أصل الفطرة العربية». وهذه الكلمات تنتمي للخطاب الأصالي الذي تحدثنا عنه، وتبتعد عن موضوعية القول، فهي تنسب كل خير ومحمدة لهذه الأمة وكل شر وسوءة لغيرها.

وأتفق مع الكاتب بأن موضوعية النظرة لأنفسنا و الآخرين تجعل خطابنا أكثر اتزانا؛ إلا أنني أرى أنّ العنوان الذي اختاره الكاتب لم يكن موضوعياً كذلك: فمن هو العربي المعاصر؟ في مقال الكاتب أهو: المسلم؟ وليس كل عربي مسلما، كما أنّ ليس كل المسلمين عرباً. وإنّ وصفهم بالعرب لأنّهم يتكلمون العربية وحدها لا يجوز، فالعرب عرق من الأعراق سكنوا الجزيرة العربية. ويقول عنهم معجم الغني :» أمة الساميين، منشؤهم الجزيرة العربية، وانتشروا من الخليج إلى المحيط بعد الفتوحات الإسلامية». ولا أظن انتشارهم بالفتوحات مسوغاً لنسب كل الأعراق إليهم.

وختاماً: أرى أنّ خطابنا منشغل بالحديث عن الأنا والآخر، وبهذا الانشغال والاشتغال تتسع الهوة بيننا وننسى أن باللغة ضميرًا يدعى (نحن).

f_wahaibi@hotmail.com

النصوص المنشورة تعبر عن وجهات نظر كتابها ولا تعكس بالضرورة رأي مجلة التفاهم أو الجهة التي تصدر عنها.

مجلة التفاهم هاتف : ٢٤٦٤٤٠٣١ - ٢٤٦٤٤٠٣٢ ٩٦٨+ ، فاكس : ٢٤٦٠٥٧٩٩ ٩٦٨+
البريد الإلكتروني : tafamoh@gmail.com - al.tafahoom@gmail.com - www.altafahom.net